شخصيات

محمد إقبال

م. معزوزي

ميلاده:

وُلِد(مُحَمَّد إقبال)عام 1294هـ/1877م في (سيالكوت)تلك المدينة التي تقع بإقليم (البنجاب) بالهند

أسرته:

ينتمي مُحَمَّد إقبال إلى أسرة هندوتية من البراهمة، وهي جماعة لها شأن كبير في الهند رغم أنها تعبد الأصنام وتقدس التماثيل، لكن أسرة مُحَمَّد إقبال تنازلت عن كل هذه العظمة، لتدخل في دين الإسلام ، وأصبح الجد الأكبر لمحمد إقبال واسمه (بنديت) فردًا ناديًا لا يدعي الألوهية كما يفعل البراهمة!! بعد أن هداه الله على يد أحد رجال الإسلام في (كشمير) وأنجبت الأسرة التي كانت بالأمس القريب تعبد الأصنام وتحتقر الآخرين (مُحَمَّد إقبال) فيلسوف الإسلام الكبير وشاعره، وفضلت الإسلام مع الفقر على عبادة الأصنام مع الغني والعظمة

نشأته:

ونشأ إقبال في بيت طاهر لأبوين تقيين؛ فكانت أمه تقية ملتزمة بتعاليم الإسلام، أما والده فكان زاهدًا، تدمع عيناه خوفًا كلما ذكّرت الجنة والنار، وكلما سمع عن أهوال يوم الحساب، ووقوف الناس أمام الله عز وجل ليحاسبوا عن أعمالهم في الحياة الدنيا من خير أو شر.

وكان والده هو معلمه الأول ، فقد كان يحثه على قراءة القرآن وحفظه وتدبره منذ صغره، وكان يقول له: إن أردت أن تفقه القرآن فاقرأه كأنه أنزل عليك، فأخذ إقبال منذ ذلك الحين يتدبر آيات القرآن الكريم، ويتفهم معانيه ويغوص في بحار علومه؛ حتى انطبع نور القرآن في قلبه، وفاض على لسانه، وأصبح دليله ومرشده في جميع خطوات حياته.

على يدي والده التقي تربى مُحَمَّد إقبال تربية إسلامية سليمة على الكتاب والسنة والقدوة الحسنة، فكان يوقظه على صغر سنه ليصلي صلاة الفجر كل يوم،ويرشده دائمًا لفعل الخير والابتعاد عن الشر.. حكى إقبال قصة جميلة عن والده تدل على إيمانه العميق وعن أسلوبه الحكيم في التربية ، قال: (جاء سائل، فطرق بابنا بعنف، فضربته بعصا على رأسه، فتناثر ما جمعه، فتألم والدي وسال الدمع من عينيه وقال: (يا بني غدًا تجتمع أمة خير البشر أمام مولاها، ويحشر أهل الملة البيضاء حكماؤها والشهداء والعلماء والعصاة ويأتي هذا السائل المسكين صائحًا شاكيًا، فماذا أقول إذا قال لي النبي -ﷺ-: إن الله أودعك شابًا مسلمًا، فلم تؤدبه بأدبي، بل لم تستطع أن تجعله إنسانًا، فانظر يا ولدي عتاب النبي الكريم ومقامي في خجلي بين الخوف والرجاء، أتفضح أباك أمام مولاه؟! يا ولدي كن برعمًا في غصن المصطفى، وكن وردة من نسيم ربيعه، وخذ من خلقه الطيب بنصيب).

تعليمه:أما عن تعليمه فقد بدأ في طفولته على يد والده، ثم دخل للكتّاب ليتعلم القرآن، وانتقل إلى مدرسة (سيالكوت)بعد أن أتم دراسته الثانوية التحق بكليتها، فدرس اللغة الفارسية والعربية على يد أستاذه (مير حسن) وقدعرف بذكائه الشديد، وأخلاقه الكريمة؛ فاحترمه الجميع؛ وحصل على الكثير من الجوائز، ونال فرصة الدراسة مجانًا ، وتخرج من الكلية عام 1897م.

وفي هذه الفترة ازداد تفكيره ، وشعر بالألم والحسرة لحال المسلمين، وهو يراهم مستسلمين لأعدائهم، فتسيل دموعه ، وينشد قائلاً: مسلمًا إن ترد حياة فيها ما بغير القرآن تأتي الحياة في كلية الحكومة في (لاهور):

في كلية الحكومة في (لاهور) حيث تفوق بذكائه على زملائه، وحصل على ميداليتين ذهبيتين، ثم على درجة الماجستير في الآداب والفلسفة، ومن فوق منبر جمعية حماية الإسلام أخذ مُحَمَّد إقبال يردد قصائده ويلقيها على السامعين، حتى اشتهر وأصبح معروفًا بين الناس، وظل يدافع عن الإسلام والمسلمين، ويدعوهم إلى الكفاح والجهاد في سبيل الله، حتى تم اختياره سكرتيرًا لجمعية حماية الإسلام.

والتقى في كلية الحكومة بـ(لاهور) بأستاذه المستشرق (توماس أرنولد) وهو من علماء الغرب الذين درسوا الإسلام عامة والتصوف خاصة، فكان يرشده ويعينه في الدراسة، وكان توماس يفخر بذكاء تلميذه، ويعتز بصداقته.

عُيّن أستاذًا للتاريخ والفلسفة والسياسة المدنية بالكلية الشرقية بـ(لاهور) بعد أن أنهى (مُحَمَّد إقبال) دراسته الجامعية ،ثم أستاذًا للفلسفة واللغة الإنجليزية في الكلية الحكومية التي تخرج فيها، لكنه كان طموحًا يريد مزيدًا من العلم، فسافر إلى أوروبا سنة 1323هـ/1905م حيث نال درجة في الفلسفة من جامعة (كمبردج) ودرجة في القانون من كلية لندن للعلوم السياسية، وعمل أستاذًا للغة العربية في جامعة لندن، كما حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة (ميونيخ) بألمانيا، وعاد مرة أخرى إلى لندن، فلم يضيع وقته في العبث واللهو، بل نال شهادة المحاماة من جامعة لندن.

في بلاد الغرب كان مُحَمَّد إقبال يدعو للإسلام، ويدافع عنه صادقًا من خلال المقالات التي كان ينشرها والقصائد الشعرية التي كان يبدعها، وكان يفخر ويعتز بالإسلام ، ولم يغره أو يعجبه الفسق والكفر الذي يعيش فيه الأوربيون، وكان يقول لهم محذرًا: (يا أهل الغرب إن أرض الله ليست دار تجارة، ولسوف تنتحر حضارتكم بخنجرها؛ لأنها كالعش الذي بني على غصن ضعيف لا قوة له).

في عام 1908م رجع إقبال إلى لاهور بعد رحلة دامت ثلاث سنوات، وبدأ العمل بالمحاماة، يدافع عن المظلومين، و لا يقبل إلا قضايا الحق، كما عرف عنه تفوقه في مهنته، لكنه تركها وعمل أستاذًا للفلسفة واللغة الإنجليزية في الكلية الإسلامية في (لاهور) ثم استقال من منصب الأستاذية، واشتغل بالسياسة، فانتخب عام 1926م في الجمعية التشريعية في (بنجاب) وعمل في حزب الرابطة الإسلامية، ورأس المؤتمر السنوي لها في (إله آباد) سنة 1930م، واشترك إقبال في مؤتمر المائدة المستديرة عام 1931م،1932م في لندن للنظر في وضع دستور للهند.

كان حلم إقبال هو إنشاء دولة خاصة بمسلمي الهند، حينما سخر منه الناس وماعلموا أن أحلام اليوم حقائق الغد وحقائق اليوم أحلام الامس،ولكنه كان على يقين بذلك و تحققت فكرته بقيام دولة باكستان الإسلامية، زار (إقبال) مصر، وأفغانستان كما زار قرطبة، وصلى في مسجد ها الشهير، وظل طيلة حياته يدافع عن الإسلام والمسلمين في المحافل والمؤتمرات وبالكتب والأشعار ، ويحاول إيقاظ المسلمين من غفلتهم، ومساعدة الأمة الإسلامية على النهوض، وكان إقبال دائمًا يعطف على الفقراء والمساكين، يجلس معهم، ويهتم بأمرهم، ويخالطهم في الطعام والشراب.

كما كان يدعو المسلمين إلى المشاركة في حركة الحضارة والتقدم، ، وكان يرفض التصوف الذي يخالف الكتاب والسنة ويتأثر بفلسفات وثنية، والتصوف الذي يجعل من المسلم سلبيا لا يشارك في خدمة مجتمعه، ومقاومة الظلم والدفاع عن المسلمين.

وكان (إقبال) يدعو المسلمين إلى التمسك بدينهم، ثم بالعلم الذي هو سبيل تقدم الأمم، إلى وحدة المسلمين تحت راية الجامعة الإسلامية.

وكان ينصح إخوانه من المسلمين، فيخاطب المسلم ويقول له: (اقرٌ مرة أخرى في سيرتك الأولى، اقرٌ دروس الصدق والعدل والشجاعة، لأنك أنت المنشود؛ لتسود العالم مرة ثانية، أنت تملك العالم بالأخوة وتحكمه بالمحبة، ما الذي محا استبداد (قيصر) وشدة (كسرى)؟! أكانت هناك قوة في العالم تحارب الجبابرة سوى قوة (علي) كرم الله وجهه، وفقر (أبي ذر) وصدق (سليمان) رضي الله عنهم؟ (!

وٌبدع إقبال العديد من الدواوين الشعرية الرائعة منها:

(صلصلة الجرس) ونشر عام 1924م، ويحتوي على حوالي ستين قصيدة وقطعة نظمها في بداية شبابه حتى سفره إلى أوربا، بالإضافة إلى ثلاثين قصيدة نظمها في أوربا، وٌهم قصائد هذا الديوان قصيدته الشهيرة: (طلوع الإسلام).

* (رسالة المشرق) : وهي رد على ديوان الشاعر الألماني (جوته).

* (زبور العجم): وهو ديوان من أروع ما كتب إقبال، وٌهم قصائده: (حديقة السر الجديدة) وهي قصيدة في الحب الإلهي.

* (ما ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق) وهي منظومات تدعو المسلمين إلى الاتحاد لمقاومة الاستعمار الأجنبي.

* (هدية الحجاز) وهو ديوان أغلبه يدور حول موضوعات هامة مثل: الحديث عن الله وعن الرسول -ﷺ- وعن الأمة وعن العلم الإنساني، وعن رفاق الطريق إلى الله، وٌهم قصائد الديوان قصيدة تدور حول إبليس ومعاونيه.

ومن أهم مؤلفاته:

(تطور الفكر الفلسفي في إيران) و(تجديد التفكير الديني في الإسلام) ومن شعره المترجم إلى العربية:

ملكنا هذه الدنيا قرونـــا وٌخضعها جدود خالدونا

وسطرنا صحائف من ضياء فما نسي الزمان ولا نسينا

وٌجاد مُحَمَّد إقبال الكثير من اللغات كالأوردية، والفارسية والإنجليزية، والألمانية، وكان يعرف العربية، وتحمل كل هذا العناء لكي يزيل عن أمته ظلام الجهل والتأخر.

وفاته: وبعد رحلة مريرة بما فيها من مصاعب، مباركة بخدمتها المسلمين، تكالبت أمراض كثيرة على الشاعر الفيلسوف، فقد ضعف بصره، وٌصابته آلام، وٌزمات كثيرة نتيجة حصوات تكونت في الكلى، لكن المرض لم يقعده عن كتابة الشعر، وفي إبريل سنة 1938م رحل(إقبال) وفاضت روحه التي أجهدها العناء الطويل في سبيل هداية البشر، وعلت شفتيه البسمة الهادئة فرحًا بلقاء ربه. وذاع خبر موت (إقبال)، ففجع الناس فيه، وصعقهم النبأ، وهزهم الأسى، وعمهم الحزن، وكان يومًا عصبيًا في حياة جماهير الهند عامة، والجماهير المسلمة خاصة، ونعاه قادة الهند وٌدباؤها من المسلمين والهندوس على السواء.. رحم الله الفيلسوف الشاعر الذي أحدث برحيله فراغًا كبيرًا في عالمنا الإسلامي،رحم الله إقبال القائل:

وَمَا فَنَا ، الزَمَانُ يَدُورُ حَتىَّ مَضَي بِالمَجْدِ قَوْمٌ آخَرُونَا

وَوَصْبَحَ لا رَى فِي الرَكْبِ قَوْمِي وَقَدَ عَاشُوا أئِمَتَهُ سِنِينَا

وَآلمَنِي وَآلَمَ كُلَّ حُرّ سُؤَالُ الدَّهْرِ أيْنَ المُسْلِمُونَا